صليب الثالوث القدوس
أزلي أبدي، في قلب
الآب والإبن والروح مغروس

لو كان الخلاص والفداء والكفارة هم حقاً في إتمام «**عقوبة بدل عقوبة**»، أي عقوبة الخطية في إبن الله المتجسد بدلاً من الإنسان، كما يعلم اللاهوت الغربي، **لكان هدف تجسد الرب** وإرساليته للعالم «**الرئيسي والجوهري**» هو تحقيق «عقوبة بدل عقوبة»، لاسترضاء العدل والكرامة والغضب الإلهي، **تمت فقط على صليب الجلجثة وإختُزِلَ بذل الخلاص كله إلى ثلاث ساعات** (أو على الأكثر إثنى عشرة ساعة) من الآلام العنيفة، دفع فيها الرب ثمن الخطية القانوني للآب، الذي أهين بخطية الإنسان... ولن يغفر إلا بعد إستلام الثمن.

أما الكنيسة الأرثوذكسية فترى أن هدف التجسد وموت الرب على الصليب وقيامته، بصورة واسعة ومتسعة جداً تمتد جذورها في قلب الآب والإبن والروح القدس معاً، من الأزل وإلى الأبد. **إنه صليب بذل وحب وفرح وإتحاد بين الله والخليقة كلها بطول وعرض وعمق المحبة الإلهية ذاتها**... وإليك الدليل من الكتاب المقدس والتقليد الكنسي المعبر عن أعماق حياة وفهم الكنيسة، وكيفية تفسيرها لمعنى الخلاص والفداء والكفارة.

لو كانت الكنيسة الأرثوذكسية تتفق مع التفسير الغربي أن الخلاص والفداء والكفارة تم تحقيقهم «كعقوبة بدل عقوبة» يوم جمعة الصلبوت، لكانت تقيم أعظم أعيادها قاطبة، وأقواها تركيزاً وإحتفالاً يوم الجمعة العظيمة: «**جمعة العقوبة المخلِّصة**» والفادية والمكفِّرة، بدفع ثمن الخطية للآب العادل الغاضب، لأنها يوم **إسترضاء غضبه وخلاص البشرية... عيد الأعياد كلها**... أهم يوم في تاريخ البشرية... **أليس كذلك؟!**

إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية ترى الخلاص والفداء والكفارة «**كعمل إتحادي**» بين الله، الثالوث القدس معاً، والإنسان، بل والخليقة كلها أيضاً (رو ٨: ٢١ ــ ٢٢ و رؤ ٢١: ١ و ١٠ ــ ١١) لتطهير الخليقة من الموت. **لذلك تُعيِّد الكنيسة لخلاصنا وفدائنا والكفارة ليس في يوم جمعة الصلبوت، بل في سبعة أعياد سيدية كبرى**، وللعجب العجاب أن الجمعة العظيمة ليست من السبعة!!!

الأعياد السبع هي: البشارة ــ الميلاد ــ الظهور الإلهي ــ دخول أورشليم (أحد السعف) ــ القيامة ــ الصعود ــ حلول الروح القدس يوم الخمسين. **أين إذن جمعة الصلبوت؟!!!** قد يظن القارئ لأول وهلة أن الكنيسة الأرثوذكسية قد أهملت الصليب! على العكس تماماً... إنها تحتفل بالصليب كصليب إنتصار وليس صليب عقوبة، صليب غلبة لا إنكسار، صليب محبة الآب والإبن والروح القدس، الذي فيه أتم الرب تأكيده المطلق أنه قد تجسد وتأنس فعلاً بالحقيقة، لأنه ذاق معنا كل معاناتنا وشابهنا في كل شيء، من خلال السبع مراحل (الأعياد السبع) منذ حُبل به في بطن العذراء وحتى موته وقيامته وصعوده وإتحاد الروح القدس، بسكناه فينا كهيكل الله الغير مصنوع بيد بشرية. **الكنيسة الأرثوذكسية تحتفل بالصليب في كل عيد من أعيادها، بل في كل صلاة** حيث علمتنا أن ندخل إلى حضرة الله برشم الصليب وصلاة الشكر وأن ندعوه أبانا الذي في السموات... ثم نكمل حديث ولقاء الحب، ونشترك معه في فرح ونصرة صليبه لنا ومعنا وبنا.

أما عن سرمدية الصليب وشركة الآب والروح القدس مع الإبن في هذا الصليب الباذل والمنتصر بفرح ومسرة، فيحدثنا عنها الروح القدس في الكتاب المقدس أيضاً. يقول لنا بطرس الرسول عن أزلية الصليب (أي كل أعمال الخلاص التي تُجسدها الكنيسة في الأعياد السبع):

«عالمين أنكم إفتُديتم... بدم كريم... دم المسيح، **معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم**، ولكن أظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم» (١بط ١: ١٨ ــ ٢٠). أي أن تدبير تجسد وتأنس الإبن كان في قلب الثالوث معاً منذ الأزل، **ولم يكن نتيجة خطية الإنسان، بل نتاج محبة الثالوث محب البشر الصالح لنا وللخليقة كلها** التي تجسد فيها ووحدها مع أقنومه الإلهي.. زواجاً أبدياً لا طلاق فيه بين العريس السماوي والبشرية

عروسه وموضوع حبه وغرامه وآلامه وموته وقيامته وسكناه بروحه حباً وهياماً بهذه العروس المتمردة الجميلة والمحيرة له...!!!

دم المسيح، كما درسنا، ليس هو السائل الأحمر فقط بل جسده ودمه، هم «حياته وشخصه وكيانه» الذي زوجَّه ووحده بطبيعة البشر والمادة ليهبها الخلود، أي الحياة الأبدية. **الصليب هو كل ما عاناه الآب** الباذل لإبنه بفرح من أجلنا **وكل ما عاناه الإبن** من شدة حبه فينا من إخلاء لذاته بالنيَّة وتقديم حياته كلها لنا (أي جسده ودمه وكيانه كله) **منذ الأزل** عندما قرر أن يأخذ طبيعتنا بكليتها (ما عدا الخطية والتي هي ليست من طبيعتنا!) بما فيها إحتمال أن يُظلم ويُقتل ويُرفض من حبيبته عروسه التي أدمته بل قتلته عمداً!!!

أما الروح القدس فشارك في خلاصنا كما نؤكد في قانون الإيمان ونقول «وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء. وتأنس». ويقول الكتاب أيضاً عن تضحية الآب العظمى عندما قبل أن يبذل إبنه الحبيب ويزوجه بطبيعة البشر الظالمين، أن الآب لم يبخل علينا بإبنه الغالي، **ولم يمسك إبنه وحيده عنا بل أهداه لنا** (نحن الغير مستحقين لأي حب) كما فعل إبراهيم بإسحق في تك ٢٢: ١٦، كهدية لله حبيبه. والروح القدس الأزلي، شارك أزلياً في تقديم دم وحياة الرب لنا عندما يقدس الخبز والخمر على المذبح وعندما قال «دم المسيح الذي **بروح أزلي قدم نفسه** لله... يطهر ضمائركم من أعمال ميتة، لتخدموا الله الحي» (عب ٩: ١٤).

والتعبير بالعربية: «**الذي لم يشفق على** إبنه بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء» (رو ٨: ٣٢)، يظنه من يحبذون تفسير الصليب «كعقوبة بدل عقوبة» أنه دليل إثبات على أن موت الرب على الصليب كان عقوبة وإلاّ فلماذا «**إنعدام الشفقة**» من الآب نحو الإبن ونحن نعلم أن غضب الآب لا يسترضى إلا بإتمام العقوبة، كما يعلم لاهوت القرون الوسطى في الغرب، في الإنسان أو من ينوب عنه كمعاقب (Penal Substitution) وهو الرب المتجسد. ولكن الترجمة الإنجليزية لهذه العبارة ولعمل إبراهيم مع إسحق في القديم **تنفي التفسير العقابي** وتؤكد هدية الحب لا القتل:

«He who **did not spare His Son**, but delivered Him up for us all...» (Rom 8: 32).

«Because you have done this thing, and **have not withheld your son, your only son**» (Gen 22: 16).

والآن يتضح لنا بالأكثر معنى «أما الرب فسر أن يسحقه بالحزن» (إش ٥٣: ١٠). أن مسرة الآب لم تكن لاسترضاء غضب من الله نحو الإنسان، ولذا «**سر أن يسحقه بالحزن**»، بل هي مسرة تفهم فقط عندما نقرأها في ومع مسرة الإبن وفرحه الذي «**من أجل السرور الموضوع أمامه** إحتمل الصليب مستهيناً بالخزي. فجلس في يمين عرش الله» (عب ١٢: ٢) وأجلسنا معه في السماويات (أف ٢: ٦) وأجلسنا معه في عرشه هذا (رؤ ٣: ٢١). والروح القدس بعمله في الأسرار المقدسة وفي قلوبنا وكياننا يأخذ كل إنتصارات وأمجاد الرب المسيح ويهبها ويعطيها لنا (يو ١٦: ١٤). لذلك هو يشارك مع الآب والابن في البذل والعطاء والإحياء المهدى لنا منذ الأزل وللأبد كما سنرى تعليم الكتاب.

أما عن أبدية الصليب، أي إهداء الله لنفسه لنا وزرع حياة الآب من خلال الإبن وبعمل الروح القدس فينا لاتحاد وزيجة روحية أبدية، فهذا أعلنه الله ليوحنا الرائي عندما رأى الرؤية والمنظر الأبدي في وسط عرش الله ورأى الرب المصلوب والقائم من الأموات «**حياً ومذبوحاً**» في آن واحد وللأبد بلا نهاية... (هدية زواجه الأبدي من البشرية) حاملاً ذبيحة صليبه وحبه الذي لا ينتهي بجراح مجده للأبد: «**ورأيت في وسط العرش... خروف قائم كأنه مذبوح**» (رؤ ٥: ٦) وقد يكون هذا الجرح الأبدي أبدياً لأن البعض لم يردوا له صدى محبته وتقدمته، بحب مساوٍ... للأبد.

وبعد أن رأينا تعليم الكتاب المقدس وترتيب الكنيسة في أعياد خلاصنا السبعة، وكيف نحتفل بصليب الرب في كل صلاة وكل رشم للصليب، وكيف أن الصليب بمعناه المتسع جداً يحوي الأزل ولا ينتهي للأبد، وكيف أن الأب والروح القدس الأزلي قد شاركا وبذلا ذات البذل مع الإبن المتجسد لنا، أسأل كل من يعلم أن الخلاص والفداء والكفارة هم في الأساس «عقوبة بدل عقوبة» سؤالاً قد يساعد في تطهير أفكارنا من لاهوت القرون الوسطى في الغرب ويوسع مدى أفق رؤيتنا معاً:

أيهما أكثر تضحية وأعظم بذلاً وحباً وألماً:

١ــ أن الإبن قد «أخلى ذاته صائراً في صورة عبد» للأبد فينا؟ أم

٢ــ أنه بعدما صار في صورة العبد إرتضى أن «يقتل ظلماً» يوم جمعة الصلبوت؟

أعتقد أن إخلاء ذاته وإتحاده بنا وإتحادنا به بكل ما يتبع هذا الإتحاد والوحدة من آلام عنيفة، تفوق آلام الجسد والنفس مهما تصورناها وإلى الأبد، **وبما فيها آلام صليب الجلجثة**، إنما هو صليب لا يمكن أن يقارن بمبدأ الــ «عقوبة بدل عقوبة» لضيق أفق هذا التفسير الغربي، وإختزاله الشديد لمعنى المحبة الإلهية، المعلنة لنا في الإحتفال بخلاص الرب وفداءه وكفارته لنا، في الأعياد السيدية الكبرى التي لخلاصنا، كما فسرت الكنيسة الأرثوذكسية **في بلاغة التقليد والطقس** الذي يروي لنا صدى رسالة الكتاب المقدس عن صليب الثالوث السرمدي، ومحبة الثالوث محب البشر التي لا يحدها يوم الصلبوت وحده أبداً، ولا حتى الأعياد السبع، ولا الأزل ولا الأبدية كلها... آمين،

• • •